**الفلسفة والعلم**

**مقدمة:**

بم تميّز الإنسان عن الحيوان؟ بالنطق أم بالتفكير أم بالإبداع أم بالفن أم بالأخلاق؟ أم بها جميعا؟

لاحظ بعض المفكرين أن من **أهم ما يتميز به الإنسان هو القدرة على تجاوز حدود الزمان والمكان**، فالحيوان أسير اللحظة تكبّله أغلالها، أما الإنسان فبوسعه أن ينفصل عن واقعه المحسوس، في **تجاوز** مستمر للحاضر نحو المستقبل أو الماضي، الحيوان مستغرق بالكلية في اللحظة الحاضرة لا يندم على ماض ولا يهتم لمستقبل، أما الإنسان فإنه يعيش في أكثر من بعد من أبعاد الوجود، هنا وهناك، والآن وكل آن. (عبد الرحمن مرحبا، ص15)

الإنسان قادر على الخروج عن إسار ذاته، والبقاء على مسافة منها، فنحن محبوسون خارج ذواتنا كما يقول فاليري، هذا البعد الخارجي للوعي الإنساني هو من صميم هوية الإنسان ذاته، فهذا الخروج هو ما يمكّن الإنسان من تصوّر أوضاع ووقائع لا وجود لها في الواقع، فالاهتمام بتغيير الواقع ليس من خصائص الحيوان، لأنه يستسلم لهذا الواقع ويركن إليه، أما الإنسان فهو دائم السعي إلى التغيير، وهذا هو سبب نشوء الحضارات الإنسانية، ولا شك أن اختراع الآلات والأجهزة والأدوات ومختلف التنظيمات هو نوع من أنواع التغيير في البيئة المحيطة، ومظهر من مظاهر القدرة الإنسانية على هذا التغيير الذي يختصّ به الإنسان دون سائر المخلوقات.

خروج الإنسان من إسار ذاته وإطار حاجاته يتحقق في الغالب بواسطة أداة فذّة هي **العقل** وما ينفتح عليه من تفكير وتخيل ومعان ومُثُل لا تدركها الأبصار بل البصائر، وهذا العالم العجيب هو **أخص خصائص الإنسان**، حتى إنهما صنوان لا يفترقان.

وإذا كان العقل هو سبب كثير مما يحققه الإنسان ويجلب له **الرفاهية والراحة والسعادة**، فإنه هو ذاته ما يجلب له كثيرا من **دواعي الألم والشقاء والهم والغم**، إنه عنوان مجده وأصل بلائه، لأن تفكيره بعقله في المصائب والآلام يضاعفها في وعيه فتؤرقه قبل حدوثها ويجتر ألمها بعد حدوثها، لأن الإنسان يعيش الوجود ويعيش الوعي به والقدرة على الحكم عليه.

وإذا كان الحيوان يقبل حياته بلا شروط ويعيش بلا معنى، فإن **الإنسان إنما يعيش بالمعاني والقيم**، وبما يصحب حياته من وعي وحرية وكرامة وإبداع، فهي التي تكسب حياته المعنى.

**الفلسفة:**

إن قدرة الإنسان على الوعي بوجوده تجعله في **تساؤل مستمرّ** عن سرّ هذا الوجود، من أين جاء؟ ومن أوجده؟ وما غاية وجوده؟ وما مصيره؟ وما الخير والشر؟

هذه الأسئلة هي من صميم الوجود الإنساني، وهي محور التفكير الفلسفي، والفلسفة هي محاولة للإجابة على هذه الأسئلة الخالدة، والبحث في ماهية الأشياء وأصولها وعلاقتها بالوجود الإنساني، إنها محاولة لتفسير الوجود والقوانين المبثوثة فيه، إنها البحث في الكلّيات التي تستوعب الجزئيات، ومن هنا فإن **الفلسفة عنوان وجود الإنسان العاقل**.  **وهي الوعي بالعالم وبرسالة الإنسان فيه**.

ويشار إلى أن الفلسفة كانت في بدايتها تشمل كل نوع من المعرفة والثقافة، وكل رغبة في البحث وإعمال الفكر، ومن هنا استمدت تسميتها في الأصل (حب الحكمة)، وتنسب إلى سقراط الذي وصف نفسه بمحب للحكمة، ولم يشأ أن يسمّي نفسه حكيما تواضعا منه.

والفلسفة في الحقيقة غير منفصلة عن حياة الإنسان وواقعه المعيش، وإذا كان العوام لا يحسنون التعبير عن الأفكار وتفريعها وعرضها كما يفعل المفكّرون والفلاسفة فإن لهم -مع ذلك- فلسفة يعيشون وفقها ويتصرّفون بمقتضاها.

**بين الفلسفة والعلم:**

كانت العلوم أجنّة في أحشاء الفلسفة، ثم استقلّت عنها لتهتم بالعلل القريبة تاركة للفلسفة أمر البحث في العلل البعيدة والمبادئ القصوى. ولكن الفلسفة تبقى أساسا للعلم، وضرورة له أيضا؛ **فالعالم** مهما بلغ علمه **لا يمكنه أن يقدّم حلولا نهائية للقضايا الكبرى** التي تشغل الإنسان كما تحاول الفلسفة أن تفعل.

**وكل فلسفة هي في الحقيقة حلقة من حلقات تاريخ الفكر الإنساني**، وهي استجابة للحاجات والأماني والمشكلات المطروحة في عصر من العصور، ولذلك ينبغي مراعاة السياق التاريخي والاجتماعي والفكري في دراسة كل نظرية فلسفية أو مذهب فكري. ففي كل عصر يبرز مفكّرون وفلاسفة يحاولون إنضاج التفكير الفلسفي من خلال اهتمامهم بالتحليل الواعي لمعضلات الكون والحياة، وإعادة تنظيم التجربة الإنسانية في العموم.

**وكل فيلسوف هو حلقة في سلسلة التفكير الإنساني**، هذه الحلقة **تحمل سمات عصرها**، ولكنها تتأثّر بما قبلها وتؤثّر في ما بعدها، وإذا بدت بعض الآراء والنظريات الفلسفية غيرَ ذات جدوى أو قيمة بالنسبة إلينا اليوم فإنها لم تكن كذلك في عصرها، فالأمر في هذا شبيه بالنظريات العلمية التي تتقادم بتقدّم العلم.

ومعلوم أن الفلسفة كانت تجمع العلوم جميعا، وبقي الأمر على ذلك حتى القرن السابع عشر، حين وضعت مناهج البحث العلمي، واعتمدت كليا على التجربة، وبذلك استقل العلم التجريبي الحديث وتميز عن الفلسفة بعدة خصائص أهمّها:

**1**/ أنه يعتمد على الملاحظة والتجربة.

**2**/ أنه يجزّئ الظواهر ويقسمّها فيختصّ كل علم بقسم منها.

**3**/ أنه وصفي تقريري لا تفسيري، وإذا فسّر انحصر نطاق تفسيره فيما هو آلي قريب.

**4**/ أن العلم يفترض وجود المدرَكات والظواهر والقضايا بوصفها مسلّمات مطلقة، وهو أمر تشكّك فيه الفلسفة.

**أما الفلسفة فتتميز بخصائص أهمّها:**

**1**/ أنها تعتمد على **النظر العقلي** والتفكير **المجرّد**.

**2**/ أنها تتناول العالَم في **كلّياته** لا في جزئياته، فهي بهذا المعنى **علم العلوم**.

**3**/ أن الفلسفة تتجاوز الوصف والتقرير إلى **التفسير**، وتتعمّق في البحث عن **العلل** **والحكم** **والغايات**، وهو ما لا بتطرق إليه العلم التجريبي.

**4**/ أن الفلسفة لا (تقدّس) التجربة الحسّية تقديس العلم لها، ولكنها تحتكم إلى **العقل**، بل وتخضع العقل نفسه للتمحيص والنقد.

**5**/ أن تاريخ الفلسفة هو جزء من الفلسفة، وأغلب القضايا التي أثيرت في تاريخ الفلسفة لا تزال محلّ نقاش واختلاف، بخلاف العلم الذي لا يكاد يلتفت إلى تاريخه.

ومهما يكن من أمر فإن الفلسفة بغير علم عاجزة، والعلم من دون الفلسفة قاصر النظر، فالعلم يغذي الفلسفة، والفلسفة تمدّه بالنظرة الكلّية والمعنى والمغزى، وتَسانُدُهما يثمر تقدّم العلم ونضج المذاهب الفلسفية.